

مكافحة الحفء في الريف

للدكتور أحمد حسين

مدير إدارة الفلاح بوزارة الشؤون الاجتماعية

يشغل مشروع مقاومة الحفء جانبا عظيما من اهتمام الحكومة والرأى العام وتبذل في سبيله الجهود والأموال، ويوع ذلك فإن هذا المشروع لم يحرم من نصيبه من النقد والتشجيع في مبلغ فائدته ومدى ما ينتظر له من نجاح. وشأنه في ذلك شأن كل مشروع إصلاحى جديد، فقد صادف تعميم التعليم من ينادى بخطره على الفلاح. وكذلك وجدت فكرة نشر المستشفيات من يقول بدم جدواها وذهاب تكاليفها هباء ما دام الفلاح معرضا للعدوى على الدوام . وهذا مشروع مقاومة الحفء ينال حظه — كما قلنا — من ملاحظات الناقدين . فمن مناد: الغذاء قبل الحذاء، ومن قائل أملأوا بطن الفلاح أولا وأصاحوا بالدواء جسمه وبالعلم قبل أن تصنحوا بالحذاء قدميه .

ومن متسائل : هل الحذاء هو كل ما ينقص الفلاح أو أهم ما ينقصه ؟ وهل إذا وزعت على الفلاحين النعال يحتفظون بها أم يبيعونها ؟ وهل نضمن أن يواظبوا عليها حتى عند نزولهم في الحقل بما فيه من ماء وطين ؟

وإذا أعطينا للفلاح نعلا في المرة الأولى فن أين له ثمنه في المرة الثانية ؟

وهل الحفء والانتعال إلا مظهر يجب أن تقدم عليه الجوهر ؟

وجوابا على هذا كله نقول : إن مشروع مقاومة الحفء لم يقصد به أن يكون هو الناحية الوحيدة التي تنصب عليها الجهود، أو الإصلاح الشامل الذي لا يحتاج بعده إلى إصلاح. وإنما أريد بالمشروع علاج ناحية واضحة من نواحي النقص في حياة أفراد الشعب وتلاني عيب جارح لكرامتهم .

ربما كان النادون على حق لو كان الاهتمام بالفلاح مقصورا على مقاومة الحفء لكن الواقع أن النهضة الإصلاحية تبدو في جميع النواحي ، فهناك المراكز الاجتماعية التي تنشأ والمدارس والمستشفيات والمناسل والحمامات التي تبنى ، والجمعيات التعاونية التي تؤسس . وقد جاءت ناحية مقاومة الحفء فسدت نقصا في برنامج الإصلاح كان لابد من لانتباه اليه إلا أنه مع الأسف قد أغفل أمدًا طويلا حتى ظفر بهتة كريمة من جلالة الملك المصلح فاستجابت البلاد لندانه كريم واقدت بسخائه فلم تجل بجهد ولا مال .

ونحن من أقول المؤمنين بأن الإصلاح المنهجر لا بد أن يشمل كافة النواحي في وقت واحد لأنه لا خير في علاج داء دون بقية الأجزاء . إذ كل منها يؤثر في الآخر ويتأثر به . فالمرض يعجز صاحبه عن العمل فيؤدي إلى التقرح ، والفقر يعجز صاحبه عن توفير وسائل الوقاية أو العلاج لنفسه وهكذا . . . وقد شرحتنا هذا التأثير المتبادل في كلمات سابقة ، وإذا كان الأمر كذلك فلا محل لوضع ترتيب عددي لعمليات الإصلاح أو لقصص جهدها على الأولى منها دون البقية ، ما دامت كلها مترابطة متماسكة ، بدليل أنه لما اهتمت البلاد بمقاومة الحفء أثار ذلك في الحال موضوع الزى عامة ، وأخذت اليهود تبذل في وزارة الشؤون الاجتماعية لوضع مشروع شامل لتهديب الزى وتوحيده . كما أنه لما رُئي أن يبدأ في مقاومة الحفء بتلاميذ المدارس الإلزامية في المدن توجه النظر في الوقت عينه إلى سد مختلف مطالبهم فينال موضوع تنفيذهم ما يستحقه من العناية التي تبشر بسد هذا النقص الخطير في الجيل الناشئ وهكذا وجد الاهتمام بالغذاء والحفء معا .

وإذا كان موضوع هذه الكلمة هو "الحفء في الريف" وقد أرجى تنفيذ المشروع في الريف إلى ما بعد المدن فإننا لا ننكر أن المهمة في الريف أدق وأشق منها في المدينة . وذلك راجع إلى كثرة عدد الحفء في الأرياف ، وإلى تبعثرهم في القرى والحقول ، ثم إلى طبيعة عملهم وما تقتضى من خوض في الطين والماء . وقبل ذلك كله هبوط مستوى الأجور بحيث يعجزهم عن ثمن الحفء .

وعندى أن الفقر هو أهم هذه العتبات ، لأن المشاهد أن أي فلاح بسيط تتحسن حالته بانتقاله من أجيراتي خولى يتقاضى مائة ونمسين قرشا في الشهر لا يابث أن يتبادر إلى شراء مركوب يبق به قدميه ويستوفى به المظهر اللائق . ومعنى هذا أنه لو وقفت وزارة الشؤون الاجتماعية إلى تحقيق ما وضعت من البرامج لزيادة دخل الفلاح بواسطة المراكز الاجتماعية وغيرها لكان هذا أحسن معين على القضاء على الحفء وغيره من آثار الفقراء .

ومع ذلك فلسنا ننوي أن نلبس الفلاحين كما يتبادر إلى ذهن البعض - أحذية فاخرة من روبرت هيوز أو راءول - بل كل ما تريده نعل بسيطة تكفى لوقاية قدميه وتكون حائلا دون وصول الأمراض المتوطنة إلى جسمه . نريد مجرد نعل معلقة في القدم من النوع الذى يسميه الفلاحون "حدوة" والذى يلبسه الاعراب وبعض الفسوس والذى كان يلبسه المصريون والرومان القدماء . ونحن نرى أن هذه الحدوة فعلا في أقدام كثيرين من الفلاحين مقطوعة من جلد ثور أو جمل ومدبوغة محليا ولا تتجاوز تكاليفها أكثر من قرشين أو ثلاثة .

ولكى يطمئن الخائفون من طين الحقل ومائه نذكر لهم أن المزارع في الممالك الأوروبية الراقية كالإنجلترا وفرنسا وغيرها فيها كما عندنا طين وماء وفلاحون يؤدون كل ما تتطلبه الزراعة من عمل وهم متمولون .

ولا يخافن أحد من بيع الفلاح لتعله ، لأننا كما أسلفنا ان نعطيه إياها من النوع الممتاز الذى يمكن أن يجعل لها ثمنا يفرى ولن نعطيه إياها مجانا لأن ذلك يتنافى مع المبادئ الأساسية للخدمة الاجتماعية السليمة ، بل ستساعد الحكومة على تقليل نفقات إنتاجها وتساهم فى تكاليفها لتخفيض ثمن بيعها بحيث لا يرتفع إلى أكثر من قرش أو قرشين ، والمذكور أن هذه العمل تمشى عاما أو نصف عام فما أيسر شراء غيرها على الفلاح مهما كان فقيرا ، وكذلك فإن من أسس المشروع ضمان الاستمرار فيه بحيث يتعود الشخص لمس العمل وتصبح عنده ضرورة لا يستطيع الاستغناء عنها فإن طفل المدرسة الإلزامية الذى يفضل متعلا خمس سنوات وكذلك الفلاح الذى يتعود العمل طويلا كلاهما تلين قدمه ويرتفع مستوى احساسه بكرامته فلا يمكن ان يحفى بعد ذلك .

ولمنا قد أفلحنا فى الرد على ما يثيره المعترضون بحيث لا يكون الاعتراض بعد ذلك إلا تشييطا للهيم أو مجرد رغبة فى النقد كشأن كثيرين من الهدامين .

وعلى أية حال فليس هناك من يزعم أن فى المشروع ضررا محتملا ، أو ينكر فائدته . وما من مصرى إلا ويملا نفسه السرور حين لا يرى على أرض وطنه قدما حافية . وكل ما هناك أن بيذا من يقول بتقديم اصلاح عن اصلاح . وهذا وذلك ضرورى لاغنى عنه ، ولقد سعد مشروع مقاومة الحفاء بعناية عالية من ملك البلاد ومن رعاياه فى حين لم تحرم بنية نواحى الاصلاح من هذه العناية — خصوصا ما كان متصلا بحياة الفلاح — فجمعت الأموال ودخل المشروع فى دور التنفيذ السريع . ومهما كان رأينا فى الزيتب إن من الواجب أن نتضافر على انجاز المشروع وإنجاحه مادما جميعا متعين بأنه ضرورى ومفيد . والآن ، ما الذى يكسبه الفلاح والبلاد من المشروع اذا نفذ وعمم وشمل ملايين الفلاحين .

يقدر كبار أطبائنا عدد المصابين بمرض الانكلستوما فى مصر بحوالى ٥٠٪ من السكان وتصل الإصابة الى الجسم عن طريق القدم العارية فان "يرقات" هذا المرض الفتاك تمكن فى الأرض الرطبة الملوثة بفضلات الانسان — والفلاحون فى العادة يتخذون بقاها وأكواما معينة لفضاء الحاجة — فيجتذب دماء القدم هذه "اليرقات" وتتسالى الى لدم من المواضع اللينة كالشقوق وما بين الأصابع ثم تصل هذه الجراثيم بواسطة الدم الى القلب ثم الرئة حيث تحرقها فيسببها المصاب الى حلقه ثم تنتهى الى المعدة والأمعاء حيث يتم نضوجها فتكون هى ديدان الانكلستوما التى تنشب خطافاتا فى الأمعاء وتمتص الدم والغذاء ، وتفرز سمها المعروف الذى يهدم البدن ويؤخر نموه كما يؤخر النمو العقلى .

ويقدر هؤلاء العلماء أن الفلاح الفقير لو نجحاً من شركائه الخطيرين في غذائه الضئيل - ونعني هؤلاء الشركاء الطفيليين - الانكلستوما والباهارسيا والديدان المعوية - لاستفاد بغذائه البسيط اكل استفادة، ونجحاً من كثير من الأمراض التي تنشأ عن نقص التغذية .

فهما أنفقنا من المال في تعميم العلاج التي تمنع تفشي هذا المرض الحديث فليس ذلك بعشر معشار ما نخسره من صحة الشعب ومن قدرته الجسمية والعقلية . وهو يجاب ذلك أقل بكثير مما ننفقه الآن لمعالجة هذا المرض الوييل .

فالمشروع يضمن لنا مكافئة أحد المرضين الخطيرين الذين يهدمان كيان الفلاحين وأغنى بهما الانكلستوما والباهارسيا .

والنعل بعد ذلك تحمي القدم من الجروح التي قد تسبب الالتئابات أو العدوى بالأمراض الخطيرة كالتي تانوس أو الحمرة بجانب وقايتها للقدم من القدارة أو لدغ الحشرات . وهناك ناحية الكرامة الشخصية والقومية . فإن الحفاء يشعر صاحبه بصغر شأنه وضآلة قدره كما أنه عنوان سيئ للشعب ومظهر لهبوط مستواه .

وعدا هذا فإن المشروع سيفتح الباب للانتفاع بمادة خامة هي الجلود تعودنا أن نصدرها الى الخارج بشمن نخس لتستخدمها المصانع الاجنبية وتربح من ورائها . وكذلك سينفتح باب واسع للعمل والرزق أمام عدد عظيم من العمال المصريين عن طريق تضاعف الطلب على الأحذية والتعال .

ولا شك أن الشعب حين يصبح الخذاء من ضروراته يكون معنى هذا أن مستوى حياته قد أخذ يرتفع . فمستوى حياة شعب ما يقاس بمدى التدرج في لوازمه التي يشعر بضرورتها له ويسعى لتوفيرها .

فزنجي المجاهل لا تزيد حاجته على الضروري من الغذاء، فما هو بحاجة إلى جد أو عمل في سبيل الدخل مادام ليست له مطالب .

على حين أن الفلاح الأمريكي البسيط قد يكون الراديو والسيارة من ضروراته فلا بد له من الكد لتوفير ما يحتاج اليه هذه المطالب . وهذا هو الفارق بين مستوى ومستوى ، أى أنه كلما تهذب الشعب وكثر ما يشعر بالحاجة اليه ازداد نشاطاً ورقياً .

وأملى وطيد بعد ذلك ألا يمر طویل وقت حتى نرى شعبنا الكريم قد برئ من داء الحفاء ووصحته وتوافر له كل ما ينقصه واكتملت له أسباب التقدم والنهوض ما